أولويّات التوفيق بين المذاهب الإسلاميّة

في ضوء الظرف الحاضر

د. جعفر المهاجـر

(١)

الحقيقة أنّ عقْـدَ مؤتمرٍ للتوفيق أو للتوحيد بين المذاهب الإسلاميّة يحتاج ، بالنظر لمواصفات هذا الظرف ، إلى شجاعةٍ كبيرة . والحقيقةُ أيضاً أنّ عقدَ مثل هذا المؤتمر الآن لا يمكن أن يتمّ ، أو بالأحرى لا يمكن أن يكون موضع تفكيرٍ واهتمام ، إلا في االجمهوريّة الإسـلاميّة الإيرانيّة . ذلك لأنّ كلَّ ماسواها من دُول مُسمّاة إسلاميّة ، فقط باعتبار دين سُكّانها كاملاً أو غالباً ، إمّا أنّها خاضعةٌ لسعير فتنةٍ مذهبيّةٍ بدرجةٍ أو بأُخرى ، وإمّا أنّها ضالعةٌ في تسعير نارها ، وإمّا أنّها في أفضل الأحوال ساكتةٌ على ما يجري . وكأنّ الأمر لا يعنيها لا من قريبٍ ولا من بعيد . والحقيقة أنها تتجنّبُ بسكوتِها إغضاب مَن هم وراءَ وراءَ الفتنة ، من قُوىً دوليّة معروفة ، تُخادعُ أهل السُلطة في تلك الأقطار، بدفعهم إلى التحالُف مع الصهيونيّة العالميّة مُقابل إخوانهم في الإسلام ، تحت شعاراتٍ تكفيريّة ، يُبرّأون من مثلِها أحلافَهم الجُدُد من غير المسلمين . هكذا يكون هذا المؤتمر صرخةً في وادي سادةِ بعض الأقطار المُسَمّاة إسلاميّة . وهكذا يكون هذا المؤتمر أشبه ما يكون بكلمة حقٍّ في وجه سُلطانٍ جائر . ودائماً يكون هذا النمط من كَلِمِ الحقّ فذّاً فريدا . وهكذا تُثبتُ الجمهوريّةُ الإسلاميّة أيضاً وأيضاً أنّها أُمُّ الولد الذي يحرصُ كلّ الحرص على حياته ونموّه ، لا تُوفّرُ جُهداً ولا تقبل بدلا .

إنّ نجاح تلك القُوى والجهات في تسعير الفتنة المذهبيّة إلى مُستوى غير مسبوق لا يعني أبداً أنّها قد صنعت ثغرةً لا تلتئم . ما هي إلا فُقّاعة إعلاميّة ماليّة ، سُخّرت لها عشرات القنوات التلفازيّة ، بالإضافة إلى شراء ذمم المئات ممّن لا خلاق لهم ، توالوا على استحضار أسوأ ما في تاريخنا من فكرٍ وسلوك ليس يخلو من مثله تاريخُ أيّ أُمـة . ولكنّ شعوبنا لا تزالُ في أعماقها مُسلمةً حقيقةً . ثم أنّ الطليعة الإسلاميّة المُستنيرة التي لم تتورّط في مشروع الفتنة تُراقب ما يجري ، وتُراكمُ الدروس والعِبَر والمغازي . وإنّها وإنْ تكُن حتى الآن صامتةً ، فإنّنا نتوقّع أن تكون بعد أن تستوعب الهجمة المَهولة غير ما كانت عليه من قبل . والذي يُراقب بعضَ مواقفها وأدبيّاتها يستطيعُ أن يرى تباشيرَ ذلك بكل وُضوح .

إنّ السُّقوط المُذهل للإسلام السياسي في مصر هو خسارةٌ للإسلام كلّه وللمسلمين جميعاً ، وليس لمذهبٍ دون مذهب . لقد تراجع الإسلامُ هناك مسافةً كبيرة عن أن يكونَ أملاً للناس في توليد نظامٍ سياسيٍّ يُلبّى طموحَهُم المشروع إلى حياةٍ كريمةٍ عمادها الحريّةُ والكفايةُ وصَونُ الإنسان والأرض . فإذا أضفنا إلى ذلك مايجري في سوريّة من صنوف القسوة الوحشيّة المُتناهية تدميراً وتقتيلاً تحت شعار الجهاد ، لرأينا بعضَ ملامح المُستقبل كما يُرادُ له أن يكون . لقد تحوّل الإسلاموفوبيا من الغرب إلى داخل ديار الإسلام . أتساءلُ ، واللهم عفوك : من ذا الذي سيجرؤ بعد كلّ هذا على طرح الإسلام بوصفه خياراً سياسيّا في كل المشرق العربي ؟ وفي هذا إلماحٌ إلى مانراه من مرامي تلك القسوة الوحشيّة ، إذ يُقدّمُ الإسلامَ بصورةٍ مُختلفةٍ عن ذلك الذي كان يُسجّل تقدُّماً كبيراً بانتشاره المُتسارع في أقطار الغرب ، ممّا كان يرى فيه حُماةُ الحضارة الغربيّة اختراقاً حضاريّاً في الصميم . النفاق الغربي يتجلّى هنا بأجلى صُوره : ها هو يُوالي إرسال شحنات السلاح إلى المُقاتلين الذين يرتكبون أفظعَ المذابح في سوريا، ويغضّ طرفه على الأقل عن المُقاتلين القادمين بالمئات من بلاده ، في الوقت الذي يجأرُ فيه كذباً بأن ما يرسلهُ من صنوف السلاح يقتصر على معوناتٍ إنسانيّة وعتادٍ عسكري غير قاتل . ويزعم أن هؤلاء المقاتلين الأوروبيين والأميركان إرهابيّون يخشى هو خطرهم بعد أن يرجعوا إلى أوطانهم ، والحقيقةُ التي لا ريب فيها أنّه لو كان صادقاً ، لكان يكفيه أن يُوقفَ هذا وذاك ، وهو القادر على ذلك لو شاء ، وبذلك تنتهي مأساة سوريا وتنتهي مخاوفه أو تهون على الأقلّ . ولكننا نراه يُمعنُ في هذا وذاك ، ثم نراهُ ينشرُ صُوَرَ المذابح والقسوة الوحشيّة والتدمير شبه الشامل للمُدُن والقُرى في مختلف وسائل الإعلام وكأنّه ، بل هو ، يقول : هو ذا حقيقة الإسلام كما يعرفُهُ ويعملون به أهله ، فلا تغُرّنّكم الأقوال .

(٢)

هي ذي باختصار شديد أبرز معالم ما عبّرت عنه بـ " الظّرف الحاضر " . وكان من المُمكن أن نُضيفَ إليه تحويل مَسار مُسلسل الثورات المُسماة بالربيع العربي ، ودور شركات تصنيع السلاح في إيقاد الفتن . . . الخ . ولكنني اقتصرتُ في هذا التوصيف على ما يتّسعُ له المقام .

والآن أسأل ، أنا المُسلم القلق إلى حدّ الرعب : هل لي أن أُطالب مجمع التقريب بأن يدعو إلى مؤتمر لا يجمع فقط مَن هم مجتمعون في الأساس ، بل

مُمثّلين لكافـــة المذاهب ، أي ، بالإضافة إلى المذاهب الخمسة الكُبرى : الإباضيّة والإسماعيلية والزيديّة والبكتاشيّة والعلويّة ، للتداول في مسألة واحدة نراها أُسَّ التخلُّـف السياسي بين المسلمين ومنبعَ الشُّرور بينهم ، أعني ذلك المبدأ الذي يقول أن الحاكم إنّما يكتسبُ الشّرعيّةَ بالغَلبَة ، ولا ينعزل إلا بفقدانه هذه الصفة مهما ارتكب من شُرورٍ وآثام . وكلّ مَن عارضه بأكثر من النُّصح اللطيف حلال الدم ، لا إثم على الحاكم المُتغلّب بأن يوردَه موردَ الهلاك .

هذا المبدأ العجيب ، الذي نظن أن لامثيل له في أشدّ أشكال الفكر السياسي عُتُوّاً وأكثرها انحطاطاً في الدنيا ، هو بتفصيلاته وتطبيقاته ، وعلى رأسِها حرمان الأمّة من أي موقعٍ سياسيّ ، أساسُ التخلّف الذي يحولُ بين أكثر المُجتمعات الإسلاميّة وإنتاج نظامٍ سياسي صالح يوفّر للإنسان حقوقه المشروعة . هكذا يغدو الإسلامُ لدى هؤلاء أداةَ قمعٍ وتخلُّف ، وليس باباً مُشرعاً على التقدّم وحقوق الإنسان . وتضيع كافةُ نداءات القرآن على كرامة الإنسان وحرّيّاته بحيث أن الباري سبحانه خاطب خاتم أنبيائه بذلك الخطاب الصّارم " لستَ عليهم بمُسيطر" . والغريب أنّنا لا نجِدُ في كل ما كتبه الكُتّابُ الإسلاميّون أي مُعالجةٍ صريحةٍ مُباشرةٍ للمسألة ، ربما لأنّهم يعرفون أنّهم سيُواجَهون بسيلٍ من الأحاديث والفتاوى والأقوال الويلُ كلَّ الويل لمَن يُشكّك فيها . نشير أخيراً أن كل الفكر التكفيري منذ ابن تيميّة حتى اليوم يرتدُّ إلى مقولة شـرعيّة الغلبة .

لستُ أزعم أنّ مُعالجة هذه المسألة الشائكة ستتمّ في مؤتمرٍ . ولكن فلنفتح باب النقاش لسببين :

ــ أولهما أن لا سبيل إلى إصلاح العلاقات الإسلامية الإسلاميّة إلا بعد مُعالجة هذه المسالة .

ـ ثانيهما أن استمرار السكوت عنها سيؤدّي إلى المزيد من يأس المسلمين من صلاحيّة الإسلام كخيارٍ سياسي .